الامير بشير الشهابي

ختمنا الكلام في الجزء السابق في ما كان من مقتل جرجس باز واخيهِ والتنكيل بابني الامير يوسف . ولا بدَّ من ان يكون اهالي لبنان قد ساءهم غدر الامير برجلين لهما منزلة كبيرة في نفوسهم وباميرين لم يرتكبا وزرًا ولا بيهما اليد البيضاء عليهِ لكن خدم السعد الامير حتى انساهم ما فعل فان رجوع الوهابيين من وجههِ من غير قتال احلَّ اللبنانيين محل الظافر والظفر يجلو صدأ القلوب . ثم زاد تعلقهم بالامير اذ ادخلهم دمشق الشام ظافرين واخرجهم منها غانمين ذلك ان الدولة العثمانية ولَّت سليمان باشا والي عكَّة على دمشق الشام وتركت لهُ امر الوصول الى تلك الولاية وتخليصها من يد واليها يوسف باشا فدعا سليمان باشا الامير بشيرًا وخلا بهِ واطلعهُ على فرمان الولاية واستشارهُ في كيفية دخول دمشق والاستيلاء عليها لانهُ كان يعلم ان يوسف باشا عزيز الجانب لا يترك الولاية طوعًا وهو كثير المال والرجال فلا يستطيع ان ينزعها منهُ كرهًا وقال للامير بشير ان كنت تساعدني فدعنا نسر الى دمشق حالما يخرج يوسف باشا الى الحج . فقال لهُ الامير لبيك انا ورجالي في خدمتك . وكتب سليمان باشا من ساعتهِ الى جميع الاعمال التابعة ايالة دمشق يعلمهم بذلك ويدعوهم اليهِ . وفي الغد رجع الامير بشير الى مرج عيون وارسل وجمع اعوانهُ من لبنان فاجتمع رجالهُ ورجال سليمان باشا عند حاصبيا وساروا نحو دمشق . وبلغ يوسف باشا ذلك وهو في المزاريب على طريق الحج فرجع الى دمشق من فورهِ وتحصَّن فيها . فارسل سليمان باشا الى اهالي دمشق يعلمهم بان الدولة العلية انعمت عليهِ بالولاية . قال تاريخ الاعيان فخرج اليهِ بعضهم ووقفوا على الفرمان الذي بيدهِ فاشار عليهم الامير بالتسليم قائلاً اني آخذ بيد مولاي واجلب عليكم عساكر مثل قطع الغمام ولا احول حتى اسلمهُ المدينة ولو خرابًا فان قبلتم نصيحتي فاطردوا يوسف باشا من عندكم ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة . ولما رأى الدماشقة توارد عساكر لبنان اضطربوا وطلبوا المهلة ثلاثة ايام فامهلهم وعادوا الى يوسف باشا فاخبروهُ بما رأوا وسمعوا واشاروا عليهِ بالتسليم

ونشب القتال بين جنود يوسف باشا ورجال لبنان فانكسر يوسف باشا وعصاهُ جنودهُ لانهُ كان قد مطلهم في دفع رواتبهم فهجم قوادهم على امواله ونهبوها ففر هاربًا الى طرابلس الشام وسار منها الى مصر ودخل سليمان باشا والامير بشير المدينة فالتقاهما الدماشقة بالاجلال والاكرام وجلس سليمان باشا في دار الوزارة واطلق الامان وعيَّن الولاة على الاقاليم وجعل الامير قاسمًا بن الامير بشير واليًا على بلاد جبيل واخاهُ الامير خليلاً واليًا على البقاع وجعل

على دمشق رجلاً اسمهُ الكنج احمد فقام عليهِ الدماشقة لانهُ كان قد ظلمهم في عهد الجزار فاغلقوا ابواب القلعة ووجهوا مدافعها الى دار الوزارة و بلغ سليمان باشا ذلك فاضطرب وارتبك في امرهِ فدعا الامير بشيراً واستشارهُ في ذلك وفوّض اليهِ التدبير فعزل الكنج احمد وارسلهُ متسلماً الى القدس واقام مكانهُ رجلاً يميل الدماشقة اليهِ فسرُّوا بذلك وزالت الفتنة . وعاد الامير بشير الى بلادهِ . وكان لقدومهِ بهجة عظيمة في البلاد ومدحهُ المعلم نقولا الترك بقصيدة ليست من جيد الشعر ذكر فيها قيام الوهابية وعبثهم ببلاد العرب ومجيئهم الى بلاد الشام الى ان قال

وقاموا بهذا العام يغون بعدهُ ... دمشقَ وفي ارض المزاريب جمهروا
فبادرَ والي امرها الكنج يوسف ... الى صدهم لما اتاهُ المخبّرُ
ومن حصن عكا سار للحرب مسرعاً ... سليمانها الشهم الوزير المغضفرُ
ونادى باقطار البلاد الوحى الوحى ... الى مشهدٍ فيهِ الفتى ليس يخسرُ
فلبّى الندا بحر الندى قاهر العدى ... شهاب الهدى ذاك السعيد المظفرُ
بشير الملا بالنصر واليمن والعلا ... امير بهِ اعتزّ الولا والتأمرُ
وسار ومن احزاب قيس امامهُ ... رجالٌ كآساد الفرائس تزأرُ
قرومٌ صناديدٌ قرونٌ اماجدٌ ... اسودٌ صعابٌ للوغى قد تصدّروا
امامهمُ الشيخ الذي شاع بطشهُ ... امام شديد البأس في الحرب مشهرُ
هو الجنبلاطيُّ البشير الفتى الذي ... هو الركن فيهِ طود لبنان يعمرُ
لديهِ رجال كالشواهين ان سطت ... ترى القوم منها كالعصافير تنفرُ
فقل لاسود البدو ترتد خشّعاً ... فقد جاءهم ليثٌ هزبر يزمجرُ
اميرٌ لهُ في كل نقع وغارةٍ ... فعالٌ واهوالٌ الى الحشر تذكرُ
اذا غشيَ العيجاء وانقضَّ هاجماً ... على الجيش قالوا ما دريدٌ وعنترُ
لهُ في الوغى للفتك باعٌ مشرّعٌ ... وساقٌ خلوض النائبات مشمرُ
صبورٌ على الجلّى وان طال جورها ... حزومٌ شديد الرأي لا يتعسّرُ
باتباعهِ قد طاب قلب وزيرنا ... فبات يذيع الحمد عنهُ ويشكرُ
ولما سرت اخبارهُ للعدى نأوا ... ومن بعد اقدام لووا وتأخروا

ثم استطرد الى تولية سليمان باشا على دمشق وزحفهِ عليها مع الامير بشير وانشاب نار القتال بين جنودها وجنود يوسف باشا ودخولها دمشق ظافرين وعودة الامير الى لبنان الى ان قال

فعاد الى الاوطان عودة ظافرٍ بعز الى يوم القيامة يذكرُ
ولاح علينا منهُ اشراق طلعةٍ من الكوكب الوضّاح ابهى وابهرُ
وشرّف اوطاناً بهِ طاب عيشها وانشا لها شأناً الى الدهر يذخرُ

وحدث بُعَيْد ذلك حادث محلي جاء مؤيداً لما يعتقدهُ اهالي الجبل من علو همة الامير وحسن رأيهِ وتدبيرهِ وذلك ان الجراد اقبل على البلاد وانتشر فيها وغرز في الارض وباض فامر الاهالي ان يستخرجوا بيضهُ ويحرقوهُ وفرض على كل رجل نصف مد من بيضهِ فجمعوا منهُ اكثر من خمسين غرارة . وفقس الباقي قبل استيفاء جمعهِ وسعى في اراضي الساحل وكان كثيراً فامر ان يبادر اليهِ الناس ويحفروا لهُ خنادق في طريقهِ يُطرَد اليها ثم يطمر فيها فاهلكوا منهُ كثيراً والباقي بلغ اراضي صلبة لا يمكن حفر الخنادق فيها فامر ان يجمعوا في طريقهِ اغصاناً يابسة وحشيشاً ويكسوها باغصان مورقة ويطردوهُ اليها ثم يحرقوها ففعلوا وابادوهُ كلهُ ونجت البلاد منهُ . وهذه الاساليب الثلاثة التي استنبطها الامير بشير حينئذٍ خير الاساليب المتبعة الى الآن لابادة الجراد

وصفا الزمان لهُ فاخذ يزيل المغارم من البلاد وكان اول مغرم ازالهُ الخفارة التي كانت تؤخذ من قوافل التجار في اماكن مختلفة من البلاد وامر ان تسير القوافل في جميع الطرق بالامان من غير ان تغرم بشيء فكان ذلك رحمة عظيمة للناس ومسهلاً لسبل التجارة . وجعل الولاة يخاطبونهُ بعبارات التبجيل والاكرام ويطلعونهُ على اخبار الولايات كما حدث لما تغلّب طوسون باشا بن محمد علي باشا والي مصر على الوهابية في الحجاز وتملك المدينة المنوّرة وجدّة سنة ١٢٢٨ فان سليمان باشا العظم والي دمشق كتب الى الامير بشير يخبرهُ بهذا النصر وهذه صورة الكتاب نقلاً عن تاريخ الامير حيدر

افتخار الامراء الكرام ذوي القدر والاحترام جناب ولدنا الاعز الامجد الامير بشير الشهابي زيد مجدهُ . بعد التحية والسلام . بمزيد الاعزاز والاكرام . نبدي اليك انهُ يوم تاريخهِ قد ورد لنا كتاب من سعادة الاخ الافخم والي مصر القاهرة المحترم يخبرنا ان سعادة ولدهِ طوسون باشا بعد استيلائهِ على المدينة المنورة . توجه بعساكرهِ المظفرة الى مكة المطهرة . وقطع دابر الطائفة الوهابية الكافرة ودارت عليهم الدائرة . بقدرة ملك الدنيا والاخرة . وتطهرت منهم تلك الوهاب الشريفة . والديار المنيفة . واستولى على مكة المعظمة وجدة وتلك البقاع المكرمة . ولم يبقَ احد في تلك الديار من اولئك الكفار . وبما ان هذه البشارة تجلب السرور التام الى جميع الاسلام . ارسلنا اليكم مرسومنا هذا لكي تشهروهُ على الخاص والعام . وتستخلبوا

الدعوات الخيرية لحضرة مولانا السلطان الذي هو ظل الملك العلاَّم وخليفة سيد الانام . ولنا ولجميع المسلمين من الرعايا وولاة الاحكام وليكن ذلك معلوماً عندكم تعتمدونهُ والسلام

وصار اذا قصد عكاء لقي فيها وفي طريقهِ اليها كل حفاوة واكرام . فقصدها سنة ١٢٣٠ فلما وصل الى جسر صيداء التقاهُ قاضيها ومفتيها واكابرها وادخلوهُ الى صيداء باحتفال عظيم فبات تلك الليلة عندهم وخرجوا معهُ في الصباح وشيعوهُ الى عين القنطرة ثم ودعوهُ ورجعوا ولما وصل الى جسر القاسمية التقاهُ ابرهيم آغا متسلم قلعة هونين وبلاد المتاولة ومعهُ مشايخ تلك البلاد وقدموا لهُ الذخاير وضربوا لهُ الخيام ومشوا قدامهُ اليها ثم شيعوهُ الى اطراف بلادهم ولما اقبل على مدينة صور التقاهُ متسلمها واكابرها ودخلوا بهِ باحتفال عظيم وخرجوا معهُ في الصباح الى خارج المدينة ولما قارب عكاء التقاهُ متسلمها عبد الله بك بجميع رجال الحكومة وضباط الجيش ومعهم الموسيقى العسكرية وساروا امامهُ الى عكاء ولاقاهُ سليمان باشا الوالي الى باب ديوانهِ واعتنقهُ واجلسهُ بجانبهِ وبالغ في اكرامهِ واعدَّ لهُ منزلاً لنزولهِ وزارهُ في اليوم الثالث في هذا المنزل . واقام في عكاء خمسة ايام على الرحب والسعة واهدى اليهِ عبد الله باشا هدايا نفيسة من الجياد والاسلحة فهاداهُ الامير بانفس منها ولم يحصل لامير قبلهُ ما حصل لهُ من الاكرام . وذاعت شهرتهُ في الديار الشرقية واقبل الشعراء على بابهِ ومنهم بطرس كرامة الشاعر الحمصي المشهور جاءهُ من عكار ومدحهُ بالقصائد الغراء وتداول اهالي لبنان اشعارهُ يتلونها في المدارس والاندية وكان من باكورة قولهِ فيهِ

بَسَمَ السرور فسرَّت الاحياء وسمت بسامي سعودك العلياء
وروت عن الشرف الرفيع محاسنٌ طابت بنشر حديثها الارجاء
اضحى الفخار بجيد فضلك باهياً واعتزَّ سبقى باهي علاكَ علاء
والى شهامتك السنية اذعنت رتب العلى والهمة القعساء
ياحبذا لبنان قد صدحت بهِ طرباً بواقر حمك الورقاء
شهد الورى لما ظهرت بانهُ طود الاماني ملجأٌ وحماء

فجعلهُ الامير نديماً لهُ ومعلماً لولدهِ الامير امين وكاتباً للخارجين عن بلادهِ وكأنهُ احلهُ محل وزير الخارجية فاعرب بذلك عن حسن ذوقهِ وقدرهِ رجال الفضل قدرهم . وعاش بطرس كرامة في نعمة واسعة من كرم الامير ولم تزل دارهُ في دير القمر شاهدة بنطمه وكما تشهد قصائدهُ الغراء التي نظمها في مدحهِ

ومما يشهد لهُ ايضاً بحسن الذوق وصفاء الذهن ومحبة الابهة والجاه وما شاكل من لوازم

الامارة بناؤهُ الدار البديعة في بتدين (بيت الدين) التي لم تزل حتى الساعة دارًا لحكومة لبنان. قال الكولونل تشرتسل في هذا الصدد ما تعريبهُ «بلغ الامير سن الكهولة السن الذي تزري فيهِ قوة الشباب بضعف الشيخوخة وتبلغ القوى العقلية والادبية والجسدية اوجها من النمو والارتقاء في من كان مخلوقًا صحيح الجسم قوي البنية. ورأى ان الزمان قد صافاهُ واناله كل ما تطيب بهِ الحياة وتسعد الايام وان دخل امارته زاد زيادة تسهّل لهُ العمل بما فطر عليهِ من اكرام السيوف مهما كان عددهم وعديدهم الخُلق الذي يمتاز بهِ المشارقة ويشترك فيهِ ملوكهم وصعاليكهم وينتشر منهُ البهاء في القصور والاكواخ ويرفعها كلها من وهدة الانحطاط الادبي الذي انحطّت اليهِ بما استولى عليها من العادات الفاسدة والشرائع الظالمة التي تسحق اشرف عواطف النفس وتخمد انفاس المطالب النبيلة من صدور ابنائهِ. وانهُ حاز من الشهرة ما اخرس السنة الوشاة واطفأ نار الحسد من افئدة الاحزاب المعادين والقى الرعب في قلوب الدانين منهم والقاصين وصارت كلمتهُ تفيم الناس وتقعدهم في كل البلاد المجاورة من دور الولاة الى مضارب العرب. وان الوالي الاكبر الذي يدهِ تدبير الامور في بلاد الشام كلها صار صديقًا لهُ بل حليفًا يجري على حسب مشيئتهِ — لما رأى ذلك كلهُ وقف بين انداده ومناظريهِ كأنهُ طود من الاطواد لا تناله نوائب الدهر بمكروه

ولا غرابة والحالة هذه ان تطمح نفسهُ الى انشاء قصر فخيم مثل قصور الملوك يكون عنوانًا لمجدهِ ومظهرًا لما فُطر عليهِ من الكرم وحب الابهة فاختار قنة بيت الدين المشرفة على دير القمر مقرًّا لهذا القصر. واستطرد الكولونل تشرتسل الى وصف هذه القنة والقصر الذي بناهُ الامير بشير. والظاهر من تاريخ الامير حيدر وتاريخ الاعيان ان الامير انما جرَّ ماء نبع القاع المجاور لنهر الصفا الى بتدين حينئذٍ لانهُ كان في دارهِ نحو ثلاثة آلاف من الاعوان والخدم عدا الخيل والبغال ولم يكن الماء كافيًا لهم. وقرَّظ بطرس كرامة ذلك بموشح من ابلغ ما نظم من نوعهِ قال فيهِ

صاحِ قد وافى الصفا يروي الظما بشراب كوثريّ العسلِ
وافاض الشهد في روض الحما لجلا الغم وبرء الانفسِ

دور

حبذا الفوّار منهُ حين راق فارانا ماؤهُ ذوب اللجين
نزّه القلب عن الهم وراق بسنا صافي صفاهُ كل عين
نثر الدرَّ بفيضٍ واندفاق وسقى الوارد اهنى الاطيبين
قد جرى عذبًا فاغنى الندما بزلالٍ عن رحيق الاكؤس

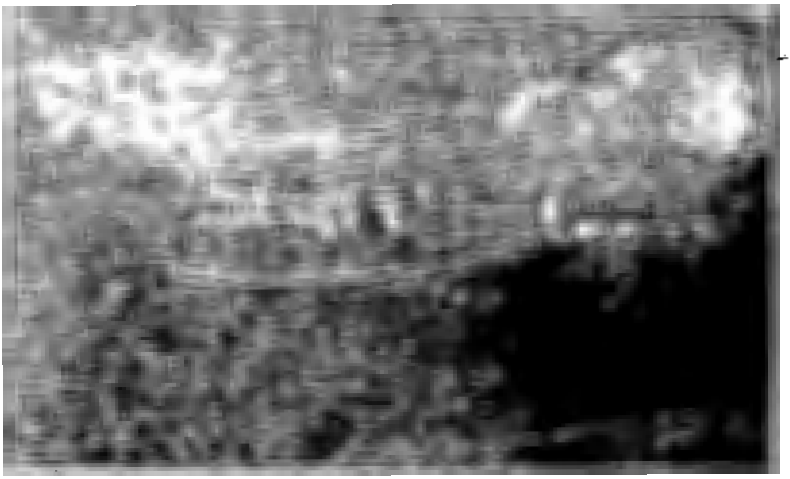

سراي بتدين (بيت الدين) كما كانت منذ ستين سنة

وعلى الاغصان التي النغما فزهت مثل ندامى العرس

دور

جاء باسم الله مجراهُ الى بيت دين المجد منقاداً مطيع
كانفجار الصبح يبدو من على ذلك السفح الى الروض البديع
وتباهى جارياً يعلو على كل طودٍ شامخ الانف منيع
مُلئت منهُ السواقي وطما دافقاً كالعارض المنبجس
فغدا بالخصب يزهو منعما كل ربع مقفرٍ مندرس

دور

دار في دارٍ السنى مثل العريس يتهادى سيفي رداه جوهري
حولهُ السرو كعشاقٍ تميس في رداه من حريرٍ اخضرِ
تبتغي لثم محياهُ النفيس والحيا يمنعها بالنظرِ
خلتين قائماتٍ خدماً حولهُ منعطفات الارؤس
وعليهِ ساهراتٌ هيماً تلتوي اعناقها بالنعس

والمرشح طويل فيهِ خمسة وعشرون دوراً من نفيس الشعر ومطربهِ

ولم يكد يتم جلب الماء الى بتدين حتى اشتدت رغبتهُ سيفي البناء والزخرفة فظلَّ بضعة سنة ينشئُ البناء بعد البناء واتى بالبنائين والمرخمين والنقاشين من دمشق وحلب . ومهد ميداناً امام السراي يلعب فيهِ مئة فارس وبنى اصطبلاً يسع خمس مئة جواد واقام المقاصير الخمسة يتفرجها بعضاً ورصف بعضها بالمرمر والفسيفساء وكان يشارف هذه الاعمال بنفسهِ ويخاطب رؤساء العمل لا كما يخاطب الرئيس المرؤوس بل كما يخاطب العاميُّ الصانع الماهر . وكثيراً ما كان ينتقد شيئاً من عملهم ويشير بتغييرهِ فلا يلتفتون الى مشورتهِ بل يبينون لهُ وجه الخطإ فيها فيسرُّ بذلك ولا يسأءهُ . ودام على هذا المنوال الى ان صارت سراي بتدين اعظم مباني جبل لبنان ولاسيما بعد ان انشأ فيها حمَّاماً افرغ فيهِ صنَّاع دمشق مهارتهم في الرسم والنقش كأن المرمر خشب في يدهم . وبنى قصور اولادهِ وغرس حولها الحدائق والجنات لكن لم يقدَّر لهذا الصفاء ان يدوم طويلاً كما سيجيء

ولم يقصر همتهُ على بناء القصور لهُ ولاولادهِ بل بنى الجسور (كاري) على الانهر لكي يتيسر للسابلة المرور عليها في كل حين كجسر نهر الكلب وجسر نهر الصفا وجسر نهر الدامور واظهر في بنائها علو همتهِ وصدق عزيمتهِ ولم يزل بعضها قائماً الى الآن مع ما مرَّ عليهِ من السنين